الشعر المطعم

للأستاذ كامل السيد شاهين

نريد بالشعر المطعم ذلك الشعر المعرب الذى اختلطت فيه العامية بالعربية ، ونهض مع ذلك شعراً سويا ، يصور الحياة فى كل ناحية ، فتجده فى السياسة ، كما تجده فى الأخلاق ، وتجده فى الغزل ، كما تجده فى الحكم ، وهو أبداً خفيف الروح ، حلو عذب ، يطربك بهذا الأسلوب اللذيذ ، الذى تجتمع فيه المفارقات الحلوة . فبينما تأخذ سمعك الكلمة العربية الجزلة ، تفجؤك بعدها الكلمة العامية المأنوسة ، فتجد لها ما تجد للنكتة الحارة من وقع ، إذ كانت الكلمة العامية بالنة سمعك وهو متهيئ للكلمة العربية ، فتجد النفس من ذلك ما تجد لرؤية الطويل المفرط مع القصير الدحداح ، أو كما تجد لرؤية المرأة متربعة فى كرسى القاضى الشرعى ، من حيث الفجاءة وعدم التوقع

وتمام الحلاوة فى أنك لا تجد بين العربى والعامى فى البيت الواحد خللا أو اضطراباً ، ذلك بأن الكلمة العامية تجىء مصقولة صقلا عربيا ، معربة إعراباً صحيحاً ، كأنما تحدرت إليك من أعرابى سليق

وميزة الشعر المطعم عن الشعر العام أنه عصرى متواضع ، يمس الاجتماع الراقى كما يمس الاجتماع الشعبى ، وبذلك يصور لنا ناحية يترفع عنها الشعر العام - ونحن نجنى فى كثير من الأحيان على التاريخ ، عندما نعتمد على الشعر العام فى تصور حياة المجتمع ، لأنه فى برج عال رفيع لا ينحط إلى المستوى الشعبى . فكما كانت الأمثال فى القديم أصدق تصويراً للاجتماع العربى من الشعر ، كذلك الشعر المطعم اليوم أصدق تصويرا للاجتماع الحاضر من الشعر العام . ولذا يكون من الخطر إهدار هذا النوع من الشعر المطعم لأنه أمس بالحياة العامة . فهو يصور المجتمع وينقده نقدا لاذعا فى خفة ومكاهة

فنحن - مثلا - نجد الفضول والتطفل داء قديماً ، ولكن الشعر العام إذا تناوله لم يبلغ فيه من الصدق وتصوير الواقع ما يبلغ الشعر المطعم . فهذا شاعر يقول فى وصف ثقيل : -

بارد لو يخش فى النار تاقى النـــاس فى النار كلها بردانه
كلما شاف صاحبين يقولا ن كلاماً دغرى يمد ودانه
ويطيل الحديث آه يانا ياعلـــبى ويا وعدى من لته آه يانه
وتراه قدامنا مادحا فيـــنا وياما يذمنا من ورانه
يدعى أنه ابن ناس ذوات أورثوه فى زعمه أطيانه
وهو والله يا عزيزى أبوه عربجى وأمه بلانه !

ثم اسمع هذا الختام المحكم القوى :

أيها الناس بعضكم عسل صا ف لذيذ . وبعضكم ديانه !

فكم من الأدباء عرض لوصف الثقلاء ، ولكنهم لم يصوروا هذا التصوير البديع الصادق الذى يستمد قوته من صدقه وإبرازه الوقائع كما هى

والناس يصرخون اليوم من أجرة الأطباء ، ولكن الشعراء لا يتناولون هذه الناحية من اجتماع الأمة ، ويتناولها الشعر المطعم فيقول الشاعر معارضا قصيدة أبى فراس : -

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر
نعم أنا يردان ، وعندى كحة
ولكن مثلى لا يطيب له صدر
فهل علم الدكتور أنى بكحتى
أمزق أحشائى الفداة ولا فخر
وقال المرجى هل معاك فزيتة
تحش بها ، أو ما معا كشى فتنجر
وقال أصيحابى الدخول أو الردى
فقلت هما أمران : أحلاهما مر
ألم تعلموا أنى فقير وأنه
إذا شافنى خسون قرشا له أجر
بنصف جنيه نظرة فابتسامة
فقصقوصة من دفتر فوقها حبر !

ولكن إذا حم القضاء على امرئ

فليس له بر يقيه ولا بحر

فاضطرار المريض ، وغلظة المرض ، وجشع الطبيب ، مصورة ههنا أروع التصوير وأبرعه

وكثير من الأغنياء لا يسهم في المنافع العامة للشعب ، ولذا تجد المجالس الشعبية تلذعهم بقارص نقدها ، ويسجل ذلك الشعر المطعم :

نعم لك مال ، غير أنك جلدة

فلست بمسدود ولا متسدد

إذا لم تكن - يا باشا - صاحب نخوة

فحسبك طظا فيك م اليوم للغد

وتجد المجالس الشعبية تتناول عباد الظاهر هازئة ساخرة محقرة ، وترى هذا في الشعر المطعم :

وكم من فتى تلقاه تحسب أنه أمير لتزويق به وتبغدد

مرتبه في الشهر ليس يزيد عن

جنيهين ، وإن الكعاب عامل أفندي

ولا يقف الشعر المطعم عند تصوير حياة الشعب واجتماعه الخاص ، بل يدس أنفه في السياسة العامة ، ولكن روحه الشعبية الجمهورية العاطفية . فيهيب بالأغنياء لإمداد فلسطين قبل طغيان اليهود فيقول :

ومن يعلم بما هم فيه يصدق بخصته ، ومنه يطق عرق

فأين الراحمون ، ألم تشوفوا ألستم تسمعون وذاك زعق

أنا كل كستليته بصلصا ونكر ثم بعد السكر عشق

وبيت الجار مهدوم عليه وممدته بها للجوع حرق

أغيثوهم وإلا قيل عنا مجانين رءوسهم تلق

متبقوش كدا ، عيب عليكم

إذا ما كنتوش غجرا حتبقوا !

كما يدس أنفه في أمر التعليم ، فالمذهب الشعبي في التربية يوجب التأديب بالعصا ، وقد علمنا أن بعض المعاهد في إنجلترا تحبذ الضرب في التعليم ، وإن كان المربون لا يزالون ينفرون منه . ولما كان الشعر المطعم تعبيرا عن رأي الشعب ، فقد جاء منتصرا محببا للضرب

وأنا امرؤ قد جئت مصر ولم أكن إلا غلاما حافيا فلاحا

قد دخلت مدرسة وكنت مفرطا متنطاطا متشمبطا قراحا

متشابطا متلابطا متخانقا متصارعا متشاتما رداحا

وإذا اهتديت رأيتني متمألثا متمسخرا ، متفلحسا مزاحا

ولا شك أن هذه (الحيثيات) لابد أن تسوق إليه العصا سوقا ، ولذا يقول : —

لكن خواجاتي على توزوزوا وعلى نفوخي وهات حتى راحا

فعلمت أن اللعب ليس وراءه إلا دمي ، تحت العصاية ساحا

فجعلت أقضي الوقت بين قراءة وكتابة متألما وحواحا

ونجحت ثم صبحت فيكم راجلا ذا شنلة ، لا عاطلا مشكاحا

إخص على زمن يحرم أهله ضرب الصبي ويشربون الراحا

والله لولا الضرب في التعليم ما نفع البليد ولا أصاب نجاحا

وليس من شك أن المجالس الشعبية كثيرا ما تدور حول لذائذ الأطعمة وطيباتها ، والشعر المطعم يتكلم بلسان هذه المجالس فيقول :

إرحل عن الدار التي أصحابها لا يطعمونك من لذيذ المأكل

بئس الطعام القول وهو مدمس مهما تحاول بلعه لا ينزل !

زرنا نجد في بيتنا ما تشتهي من كل مطبوخ وكل مخلل

عملت لنا بالأمس عبلة كفتة طباخ باشا مثلها لم يعمل

وكباب عبلة ، لا نقل حاتي ولا ماتي ، وكل منه ثلاثة أرطل

إن الكفتة لو تمثل شخصها بين الصنوف تشتها في الأول

وإذا سلاطين الخشاف تجهزت فاشرطها الأكام والشرب واعجل

والشاعر لا ينسى نفسه في زحمة الكباب والكفتة والخشاف ، ولكن يذكر أنه لابد من العزة والكرامة حتى يطيب الطعام فيقول :

لا تسقني مرق الفراخ بذلة بل فاسقني بالعز ماء الفلفل

مرق الفراخ بذلة لا أشتهي والطرشي في عز أراه يلذ لي !

ولكن . كيف يتناول الشعر المطعم فن الغزل ، والحب يهز قلوب العامة والدهماء على السواء ! إذا بحثنا نجد الغزل في

هذا الشعر غزلا يناسب الطبقة الدنيا ، وعثلها أروع التمثيل ، فلكل طبقة أسلوبها فى طريق المغازلة ، عملية وكلامية. وفى الطبقة الشعبية نجد من النساء من تحب من زوجها أن يضربها منذ الليالى الأولى ، وإلا لم يكن شهما ، فهى تشتم زوجها وتعربد عليه ، لتستثيره ، وتخبر مبلغ رجولته

بكرت تبستفنى وتلمن لى أبى فأجبتها حالا بضرب الشيشب
مهمولة وتريد منى طبلة يموت خدها من أمامى،والنبى
يابنت بنت الكلب،مادخلى أنا البيت عندك عمرى أو خربى

وبينما نجد هذا النوع من النساء فى الطبقة الدنيا ، نجد نوعا آخر يحب الدلال ، ويحب المحاسنة ، ولكن مادلال العامة وكيف يكون . هذا شاعر يصور ضربا منه فيقول :

قلت ـ يامنية الفؤاد اركبينى وامسكى شال عمتى كالعنان آلا

ونجد أسلوب الشعر العامى فى الغزل مأخوذا من الحى الشعبى لا يتطفل على الأحياء الراقية ، فهذا شاعر يشبه قلبه بالقبقاب ، يوما فى رجل هذه ، ويوما فى رجل تلك :

ياقلب كالقبقاب حيره الجا ل ، فتارة تدنى،وأخرى تزجر
صبحا برجل فهيمة وعشية فى رجل سلمى،والزمان تجرجر

وهذا آخر يسمى محبوبته بأسماء بلدية مثل ستيتة ، وهنومة وكمب الخير فيقول :

ستيتة لاتكن تجواك عذلى فإن بهجتى حللا بتفلى
وبين أضالعى وايور جاز وإبرته جفاك لشملى
حرام أن أعيش بلا وبور وفى جنبى (بريمس) منه أصلى

ثم يذكر الشاعر دلال محبوبته فيزعم أنها لجهلها بالغزل والدل ، لا تميل كما يميل البان ، ولكن تميل كما تميل الحائط ، ولا ترنو كما يرنو الغزال، ولكن ترنو كما يرنو الأعمى، ولاتلتفت تلفت الظبى ، ولكن تجفل إجفال البغل ـ وأن غزلها أن تصفعه على قفاه بكف كالرحا . كما تشد شعره الذى يشبه (جزة الخروف) ثم تمضى فى تقليته ، واستخراج هوامه ، فيقول : —

فمالت حائطا ، ورنت كأعمى إلى ، وأجفلت إجفال بغل
وصافح كفها الرحوى قفايا وشدت جزتى ومضت تقلى
فلا والله ما حرب البسوس بأهول من تصيدها لقملى

ولو تسمعنا ذلك لعيبنا ، ولأعيبنا الفراء ، وفى ذلك لمن شاء بلاغ

وبعد : فإنما إذا كنا نبكى اليوم لضياع الأزجال الأندلسية الذى فوت علينا معرفة عامية الأندلس ، ولو كشفت الآن لكانت أثرا تاريخيا جليلا — إذا كنا نبكى لضياع هذا التراث ، فإننا أجدر بالبكاء إذا ما ضيعت هذه الثروة التى لم يعن بجمعها أحد ، ولم يسرع لتقعيد قواعدها أحد ، إلا شيئا يسيرا ذكره المرحوم حسين شفيق المصرى لا يشفى ظمأ . ولم يعن أحد باستخراج ما تحويه من أساليب و كنايات تعد من أبرع وأروع ما تحوى بلاغات الأمم مما يصلح أن يكون رسالة شائقة فريدة ، وحسبنا أننا فتحنا الباب لمن شاء أن يسلك أو يدرس

كامل السيد شاهين
مبعوث الأزهر للسودان

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر فى الباكستان

ثمن كل مجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد
والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة